

علم الغيب

مصر الغيب :

الغيب هو الأمر الخفي الذي لا يدركه الحس ، ولا تقتضيه بدهة العقل^(١) ، ويقع العلم به دون مقدمات أو أسباب تفضي إليه ، ومن غير استدلال منطقي ينتهي إلى معرفته ، ودون أن يثبت عنه خبر صادق^(٢) أما ما يدرك بالدليل والقياس والنظر ، فإنه مجرد ظن ، والظن غير العلم^(٣) . وعلى هذا يكون العلم بالغيب إدراك جزئي أو كلي مغيب عنا ، دون اتئوسل إلى ذلك بصناعة أو نحوها مما يستند إليه الزجر والتطير وما إليه^(٤) .

(١) التهانوي ، كشف اصطلاحات الفنون ج ٢ ص ١٠٩٠ وقد رأى الأستاذ محمد فريد وجدى أن الغيب يقابل الواقع (مجلة الأزهر في الجزء الخامس من الجهد الثامن) ولكن هذا التعريف أحنق فضيلة الأستاذ مصطفى صبري (شيخ الإسلام في الدولة العثمانية سابقا) فتد به في كتابه (القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون) وقرر (ص ١٤٩) بأن الغيب ما غاب عن الحاسة ، والذي يبدو لنا أن التعريفين ليس بينهما تناقض ، وإن كان كلاهما غير واف بالحاجة .

(٢) أخوان الصفا ، ج ١ ص ١٠٥ - ١٠٦ طبعة المطبعة العربية عام ١٩٢٨ م ، وابن خلدون في المقدمة ص ١٠٤ طبعة المطبعة البهية بمصر .

(٣) التهانوي ، في الكشف ج ١ ص ٥٢

(٤) ابن حزم ، الفصل في الملل والنحل ج ٥ ص ٣٩ الطبعة الأولى بمطبعة التمدن ١٣٢١ هـ

علم الغيب لا يجيء اكتساباً :

ومن أجل هذا ذهب جمهور مفكرى الإسلام إلى أن الله وحده علام الغيوب ، فليس يعرف الغيب أحد من البشر « لا منجم ولا كاهن ولا نبي من الأنبياء ولا ملك من الملائكة إلا الله عز وجل » وذلك لأن معارف المرء لا تتجاوز ثلاثة ميادين : أولها ما اتصل بالماضى ، وثانيها ما انصب على الحاضر ، وثالثها ما امتد إلى المستقبل ، ويدرك المرء هذه الآفاق بثلاث طرق : أولها السماع والإخبار ، وثانيها الإحساس بما هو حاضر موجود ، وثالثها الاستدلال على ما هو كائن فى المستقبل - وهذه الطريق تشمل النجوم والزرزور والفأل والسكينة والعيافة ، وتتضمن تأويل الأحلام والنظر فى الكف وضرب الحصى والعرافة ونحوها مما يحتاج إلى تعلم ونظر واعتبار ، وليس هذا كله من الغيب فى شىء ، فأما يقع الغيب بالخواطر والوحي والإلهام وهذا لا يجيء صناعة ولا اكتساباً^(١) وتوجه المرء بقلبه إلى الله ليكشف له الغيب ، من صفات أرباب الأحوال ، الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال ، ومن أجل هذا قلّ الكشف عند كبار الصحابة وكمل السلف الصالح ، ناهيك بمن ياتمسون الغيب بالتوجه إلى غير الله...^(٢)

(١) أخوان الصفا ، ج ١ ص ١٠٦

(٢) كأن يوجهوا إلى الكواكب كما يفعل أهل النجامة فيما يقول البعض (فارن جواهر الكلام للأبيجى - ص ٢٠٥ من الجزء الثانى من المجلد الثانى لمجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد (ديسمبر ١٩٣٤) نكرة الدكتور أبى العلا عفيفى أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب بجامعة فاروق الأولى) .

العالم بالغيب شهر صفوة البشر :

الله وحده علام الغيوب ، ولكن استثنائه تعالى بالغيب ، ليس معناه في نظر الكثيرين من مفكرى الإسلام ، سلب القدرة على معرفة الغيب عن كافة البشر ، فإن معرفة الغيب هبة إن شاء أن يجنبيه الله من عباده ، أو فطرة يؤتيها صفوة المؤمنين وخاصة الناس ، ممن فطروا على الرجوع عن عالم الحس إلى عالم الروح . وآية هذه الفطرة أن أهلها إذا توجهوا إلى تعرف الكائنات المغيبة عنهم ، اعتراهم خروج عن حالتهم الطبيعية كالنشاوب والتمطط ومبادئ الغياب عن الحس ، ويتفاوت هذا بتفاوت هذه الفطرة عند أهلها ، ومن لم تنهياً له هذه الآفة فليس من إدراك الغيب فى شيء ، وإنما هو ساع فى تنفيق كذبه^(١) وشبيه بهذا ما يقع لأصحاب الوحي من الأنبياء ، إذ تدر كهم غيبة عن الحاضرين معهم ، يصحبها غطيط كأنها غشي أو إغماء فى رأى العين ، وليست منهما فى شيء ، ولكنها فى حقيقة الأمر استغراق فى لقاء الملك الروحانى ، بما تهمياً لهم من إدراك خارج عن نطاق البشر إطلاقاً ، ومن أجل هذا اتهمهم أهل الشرك بأن لهم رثياً أو تابعاً من الجن ، ولو لم يلبس عليهم ما شهدوه من ظاهر الأحوال ، لعرفوا أن ذلك وحي من الله^(٢) .

ويقول « لين » E. W. Lane فى معرض حديثه عن أهل الدرك من الأولياء :
جرت العادة بأن يقال إن الولي يعرف ما يخفى على غيره من البشر ، إذ يهبه الله القدرة على إدراك أسرار من الغيب ، تقتضى ولايته العلم بها ، وبذلك يتطالع على ما لا يكون فى

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٩٨ - ٩٩ ، ١٠٢

(٢) المصدر السالف ص ٨٠

متناول الإدراك الحسى ، وهذا يناقض - فيما يقول «لين» - تناقضا صريحا ما يقرره القرآن الكريم فى عدة مواضع ، من أن حجاب الغيب الذى تقصر الحواس عن إدراكه ، لا يرتفع لغير الله ، ولكن المسلمين قاما تساورهم الخيرة فى مناقشة موضوع ، فهم يدلون على أن الآيات القرآنية فى هذا الصدد ، تتضمن الحديث عن العلم بالغيب بمعناه المطلق ، ويرون أن الله يهب أوليائه هذا العلم متى أراد ذلك (١) وسنعود إلى مناقشة ما يراه الأستاذ «لين» تناقضا بين موقف القرآن وموقف جملة من المسلمين .

هذا ما يقع الأيقاظ من مدركى الغيب ، أما النيام فقد يوحى الله إليهم برؤيا صادقة يطلعهم فيها على غيبه ، فيرون مكنوناته دون أن يخرجوا عن حالتهم الطبيعية فى كثير أو قليل .

ومن هذا نرى أن الله وإن استأثر بعلم الغيب ، فإنه قد يهب رسله القدرة على إدراك بعض نواحيه ، فيكون إدراكهم من خصائص النبوة ، وهى لا تجبىء اكتسابا ، وقد يقوى بعض الخالصين من أتباع هؤلاء الرسل ، على الإشراف على عالمه بانكشاف الحجاب وإدراك شىء من تلك الأنوار ، ودون هؤلاء أفراد ربما كان لهم من سلامة الغطارة أو معالجة النفس بأنواع الرياضة أو طروء مرض يصرف قوى النفس عن الاهتمام بشهوات الجسد أو نحو ذلك ، فيدركون شيئا من عالم الغيب أحيانا (١) .

هذا هو الاتجاه الغالب عند مفكرى الإسلام ، وإن كنا سنعرض فى ختام هذا

(1) E.W. Lane, The Manners and customs of the Modern Egyptians.

(٢) السيد رشيد رضا ، الوحي المحمدي ص ١٦٥ وتفصيله فى جزء التفسير السابع (له)

ص ٤٢١ ، ٤٥٦ - ٤٦٩ وملحقه فى الجزء التاسع ص ٥١٣

البحث ، إلى بيان شيء من وجوه الخلاف بين المفكرين في تأييد التكهن السنعي أو إنكاره ، مقدرين بأن التأييد لا يخلو من التأثير بالاتجاهات الهيكلية القديمة ، وأن الإنكار مرجعه إلى الروح الدينية الإسلامية .

شذوذاً في إدراك الغيب في نظر مفكرى الإسلام :

ومردّ التدبر على إدراك الغيب - في نظر هؤلاء المفكرين - إلى ذهاب الحس وزوال حجابيه ، وقد يتهيأ هنا لبعض المجانين والمرضى والقتلى والمعتوهين من المريدين ، ومن إليهم ممن يتهيأ لهم انصراف المزاج عن موارد الحس ، وتجرد النفس عن علائق البدن ، وانسئالها عن التفكير العقلي ، ومن هنا وقع الغيب لهؤلاء ، ولئن يحاولون أن يموتوا بالمجاهدة موتاً صنعياً ، بقتل كافة قواهم البدنية ، وبمحو آثارها التي تلوث بها النفس^(١) ، فليس يمنع النفس من تمقل المدارك الغيبية إلا انفاسها في البدن والحواس وشواغلها ، فإن الحواس بما فطرت عليه من إدراك حسي جسماني ، تجذب النفس إلى الظاهر دواماً ، ولكن النفس إذا انتمست من الظاهر إلى الباطن ، ارتفع حجاب الحس لحظة ، تتطاع فيها النفس إلى الذوات التي فوقها في المراتب الأعلى ، لما بين أفاقها وأفقيهم من وجوه الاتصال ، وفي هذه الذوات صور الموجودات لأنها إدراك محض وعقول بالفعل ، فتقتبس النفس منها علماً ومعرفة^(٢) ، ومن أجل هذا جاز وقوع العلم بالغيب ، لمن استطاعوا أن يزيلوا حجاب الحس في بقعة أو منام ، أليس في النوم زوال حجاب الحس^(٣) . . ؟

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٩٥

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٢ - ٩٣ و ٤١٥ - ٤١٦

(٣) وهكذا أخرج جبهة مفكرى الإسلام من مدارك الغيب ، مدعيه من أهل العرافة

والنجامة والخيافة والطيرة والسحر ونحوه .

اتجاهات المفكرين في تفسير الوحي والالهام :

والإسلام - كغيره من الديانات - لا يستقيم دون الاعتقاد في صحة الوحي والإلهام ، ولهذا كان لا بد لفكره من أن يعرضوا للتفسير الوحي تفسيراً عقلياً يدحض مفتريات منكريه ، أو يصد تيارها على أقل تقدير . وقد اختلفت وجهات نظرهم في مسالكها وتفاصيلها ، ولكنها اتفقت في أصولها والتقت عند تأييده ، وحسبنا الآن أن نشير موجزين إلى هذه الاتجاهات :

الاتجاه الفلسفي في تفسيره :

فأما الفلاسفة فقد ذهب جمهورهم في تأويله إلى ترقى العقل البشري في مراتب الإدراك، حتى إذا بلغ مرتبة الفيض والإلهام، وأضحى - عقلاً مستفاداً - اتصل بالعقل الفعال الذي يربط بين العالم العاوي والعالم السفلي ، وعند وقوع هذا الاتصال يتقبل المرء فيض الأنوار الإلهية ، وتنكشف له مكونات الغيب المحجب ، وقد يقع هذا الاتصال بالتأمل العقلي للحكام ، وبالخيلة القوية مع هذا التأمل للأنبياء والواصلين من الأولياء . فالوحي عند فلاسفة الإسلام اتصال النفوس الناطقة بمقول الأفلاك ونفوسها اتصالاً معنوياً يمكنها من الاطلاع على ما يتضمنه من صور الحوادث التي ترسم في النفس البشرية ، كما يحدث إذا حاذت مرآة مرآة أخرى فيها نقوش تنعكس إلى الأولى كما يقول ابن سينا في إشاراتِهِ .

الارتقاء الصوفي في تصوره :

وقد تشعبت وجهات الصوفية في نظرهم إلى ذلك ، فمنهم من تحول عنده الاتصال الفلسفي إلى اتحاد ترتبط فيه النفس البشرية بالروح المقدسة - أي العقل الفعال في لغة الفلاسفة - بعد تجردها من علائق الحس وشهوات الجسم ونحوها مما أبان عنه السهروردي وأتباعه من الإشراقيين من الصوفية ، ومنهم من رفض الاتصال الفلسفي والاتحاد الصوفي السالف - كالغزالي - وقال بأن الإلهام الذي يفيض عنه العلم اللدني ، يُصدر عن الله دون وسيط ، ومرده إلى فطرة النفس وتهيتها له من غير معلم ، فإن النفس مهيأة بطبيعتها لاستقبال الوحي والإلهام الإلهي متى تجردت من علائق حسها ، بتقديم المجاهدة ونحو الصفات الذمومة وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله مع الجوع والسهر ونحوه حتى يرتفع حجاب الحس المرسل بين القاب واللوح ، وتطالع النفس جواهر المسكوت وتكشف لها مكونات الغيب .

وليس يعنينا اختلاف الصوفية في التفاصيل ، بقدر ما تعنينا النتيجة التي انتهوا إليها ، وهي نتيجة سلم بها بعض الحنابلة من أهل السنة ، الذين ناصبوا المتطرفين من الصوفية العداء . وهكذا يتفق صوفية الإسلام مع فلاسفته - فيما يقول معالي أستاذنا مصطفى باشا عبد الرازق - على اعتبار الوحي إشرافاً من النفس الإنسانية على حقائق الكون المنبثة في عالم فوق علما ، ولكن بين مذهب الصوفية ومذهب الفلاسفة فروقا ، لأن العالم العالی عند الفلاسفة ، عقول مجردة ونفوس هي عقول الأفلاك ونفوسها ، وصور الأشياء منقوشة فيها بحكم أنها مصادر لها وأسباب لوجودها ، وبحكم أنها مجردة بطبيعتها ودرآكة ، أما العالم العالی - عند الصوفية - الذي يفيض منه

الوحي والإلهام ، فهو لوح محفوظ كتب الله فيه الوجه الذي أراه ، ما كان وما يكون ، وملائكته هم أجسام من نور ذوو نفوس كريمة لها اطلاع على ما في اللوح ، وهي أيضاً ألواح ، خطت فيها صنوف من العالم الإلهي ، وما الوحي إلا أن يتلقى النبي من الملك شرائع إلهية مع شهود الملك وسماع خطابه ، إذ لا يجمع بين شهود الملك وسماع خطابه إلا الأنبياء ، أما الولي فإنه إن سمع صوتاً فهو لا يرى صاحبه ، وإن رأى الملك لا يسمع له كلاماً - كما جاء في كتاب الكبريت الأحمر .

ومنشأ الخلاف أن الفلاسفة فسروا النصوص الدينية بما يوافق ما استقر عندهم ، من نظام الكون وترتيب العوالم سفلياً وعلوياً ، فهم يجمعون الملائكة الذين ورد ذكرهم على لسان الشرع ، عبارة عن العقول المجردة والنفوس الفلكية التي أثبتتها فلسفتهم ، ويؤولون النصوص تأويلاً يتفق مع أغراضهم ، أما الصوفية فإنهم يعتمدون أولاً على النصوص الدينية ، ويحاولون مبلغ جهدهم أن يشرحوا مبهمها ويوفقوا بين ظواهر التضارب بينها ، معتبرين إلى الركون إلى منازع الفلسفة ، وإلى ما يسمونه ذوقاً تقدر عنه العبارة ويدركه العارفون ، فهم أقل إيماناً في التأويل ، وأقل وضوحاً فيما يقول معالي الباشا . وقد كان رأى الفلاسفة يظهر في عصر النهوض ، كما يظهر رأى المتكلمين في عهد الركود ، ومذهب المحدثين من أمثال محمد عبده ، إنما هو مذهب الفلاسفة قد طرزت خواشيه مذاهب المتكلمين^(١) .

(١) معالي مصطفى باشا عبد الرازق ، في بحث له عن الوحي - لم يطبع بعد ، وسنعود للحديث عن هذا الموضوع عند ما نعرض للكلام على « إمكان الوحي » و « طريقة الكشف عند الصوفية » . الخ .

منابع هذه الرؤى :

إن الاعتقاد في عالم الغيب والقدرة على ارتياد مجامعه ، أعرق في القدم من النظر العقلي عند بني البشر . لأن الناس لم يهتدوا إليه بمنطق عقولهم ، بل يرحى طبيعتهم وهدى شعورهم ، وليس يمتينا الآن أن نؤرخ هذا الاعتقاد ، ولكننا سنحاول أن نرد الأفكار التي قيات فيه إلى المنابع التي صدرت عنها ، وما دنا بصدد تفكير إسلامي ، فإن من سداد الرأي ألا يتجه بنا البحث عن أصوله خارج الإسلام ، حتى إذا عز الاهتداء إلى جذوره في نطاق الدين ، أجهنا إلى البحث عنها فيما اتصل بالمسلمين من تراث القدماء .

صوفى القرآن الكريم :

ذاعت أساليب التنبؤ عند عرب الجاهلية ذيوماً واسع المدى ، فلما نزل القرآن هاجم هذه الأساليب ، وحصر الإدراك الغيبي في الله وحده ، ليحتث الوثنية من جذورها ، فلا يخشع أو يلجأ لغير الله إنسان^(١) ، قال تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يملها إلا هو »^(٢) وكرر هذا المعنى في أكثر من آية^(٣) . ولكن الله يطالع على غيبة من يجتبيه من رسله : « وما كان الله ليظلمكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء »^(٤) ويقول كذلك « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من

(١) محمد عبده ، رسالة التوحيد ص ١٥٤ (الطبعة السادسة عام ١٣٥١ هـ)

(٢) سورة الأنعام ، آية ٥٩

(٣) سورة هود آية ٣١ ، النمل آية ٦٥ والأنعام آية ٥٠ وغيرها

(٤) آل عمران آية ١٧٩

ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم»^(١) . ومع أن آيات القرآن التي تنصب على العلم بالغيب ، يبدو أنها تدره إلى الله ومن يجتنبه من رسله ، فإن أهل السنة قد اعتمد إجماعهم في تفسير الآيات ، على إمكان اطلاع غير الرسل على الغيب ، اطلاعا لا يفيد أكل مراتب العلم ، أو قصر اطلاعهم على بعض ميادين الغيب ، وبذلك فرقوا بين اطلاع الرسول واطلاع غيره من صفوة المؤمنين^(٢) .

والقرآن بمد هذا يحارب التنبؤ الذي يقصد إليه أهله ويلتمسونه صناعة واكتسابا، سواء اقتصروا في هذا على التوسل إلى الله^(٣) ، أو اعتمدوا فيه على الشواهد الحسية من قداح أو أزلام أو نحوها^(٤) .

والله يطلع على غيبه من شاء بطرق شتى : فقد يرسل ملاكا يتمثل بشراً سوياً^(٥) وقد يكلم الله الرسول تكليماً^(٦) ، وقد يلقى الله المعاني في نفس الموحى إليه كما وقع لبعض الأنبياء ، وقد يوحى الله بالمعاني في رؤيا صادقة تكشف عن مجاهل الغيب^(٧)

(١) الجن ، آية ٢٦ - ٢٧

(٢) انظر Flügel في « غيب - الغيب - بالغيب ... الخ

ويشهد بصحة هذا ، ماورد في سورة الكهف عن صاحب الكهف موسى النبي أطلع الله على غيبه بشأن السفينة واللام والحداد ، مع أنه لم يثبت أنه كان نبيا أو رسلا ؛ وما ورد في سورة مريم عن هبوط الروح عليها ، وتمثل لها بهراً سوياً ، وإطلاعه إياها على ما سيكون من أمرها ، وأمر ولدها ، مع أن مريم ليست نبيا ولا رسلا .

(٣) الصافات آية ٦ - ٩ والطور آية ٣٧ والجن آية ٨ - ٩ ، الشعراء آية ٢١٠ -

٢١٢

(٤) المائدة آية ٣ ، ٩٠

(٥) مريم آية ١٦ - ١٩ ، الذاريات آية ٢٤ - ٣٠

(٦) النساء آية ١٦٤ والأعراف ١٤٤

(٧) الصافات آية ١٠٢ - ١٠٧ ويوسف آية ٤ - ٦

وهكذا نرى أن القرآن الكريم قد تضمن اتجاهات مفكرى الإسلام فى تعريف الغيب وتحديد آفاقه ، حتى لانكاد نجد رأياً يخالفه فى هذا الصدد إلا وقد نصت عليه آياته الكريمة .

ولعل من الطبيعى ألا يتضمن القرآن اتجاهات المفكرين فى تفسير الوحي وإمكان وقوعه تفسيراً عقلياً ، فما لهذا نزل القرآن الكريم ، وهى من إبداع مفكرى الإسلام ، على الرغم من اتفاقها مع كثير من الأفكار الشائعة عند اليونان والرومان والمهنود بهذا الصدد . والراجع أن هذا التوافق دليل على ما يمكن أن تصل إليه وحدة العقل البشرى ، وتشابه استجاباته لتشابه المؤثرات - وسنعرض فيما يلى بعض نماذج من هذه الأفكار .

صوفى اليونان والرومان من العلم بالغيب :

إن التشابه بين آراء اليونان والرومان وآراء مفكرى الإسلام ، لا يشمل الأصول وحدها ، بل قد يمتد حتى يتناول الفروع والتفاصيل : فمن ذلك أن الإدراك الغيبى قد أصاب حظه الوافر من تقدير المساهين ، لأنه ارتبط بوحى الأنبياء وإلهام الأولياء ، فارتفع بذلك على كل عام سواه ، ولكنهم - مع هذا - هاجموا من أساليبه ما جاء صناعة واكتساباً ، لأن علم الغيب خاصة يستأثر به الله ويهبه من شاء من عباده ، وكذلك الحال عند اليونان والرومان : اتصل الإدراك الغيبى بالشعائر المقدسة وأضحى جزءاً من الدين ، واعتبر الاستخفاف به استخفافاً بالآلهة^(١) ، واهتم الذين أبوا التسليم به ، بتوكيد الفصل بينه وبين الدين والآلهة^(٢) . وتدخل أهله فى

(١) قارن Cicero : Divination. i. 4,5 طبعة لويب Loeb الإنجليزية و Garnier

الفرنسية - فى التعليقات -

(2) Ibid : i. 5 & 6 ; ii, 72.

شؤون البلاد الداخلية والخارجية ، فكان الأثينيون لا يمتدون اجتماعاً إلا حضره الكهان والرايون ، كما خصص الأسبرطيون عياناً لنصح الملوك ، وحضور الجلسات التي يعقدها مجلس الشيوخ ، وكان الرومان لا يقدمون على عمل إبان الحرب أو السلام إلا بعد استشارة أهل العرافة^(١) ، وبعض هذا نراه ملحوظاً في قصور الخلفاء والملوك في الإسلام كما سنعرف بعد .

وقد قسموا أساليب التنبؤ إلى صنفية تجبىء صناعة واكتساباً (وتشمل العيافة والنجمانة وتأويل الخوارق ... الخ) وطبيعية وتشمل حالات التنبؤ إبان الجذب في اليقظة، والرؤيا الصادقة أثناء النوم^(٢). وسلم الكثيرون من فلاسفة اليونان والرومان بهذه الأساليب كلها ، فسلم بها سقراط وبعض تلامذته وأفلاطون وأتباعه من أهل الأكاديمية القديمة ، والشاعرون من تلامذة أرسطو ، وفيتاغورس وديمقريطس ، والرواقية الذين أبوا في الدفاع عن فنونه أحسن بلاء ، ولم يسلم بعض الفلاسفة بأساليب التكهن الصناعي وإن اعتقدوا في صحة التنبؤ الطبيعي (كما فعل جمهرة مفكري الإسلام) وقد كان على هذا ديكار كوس Dicaearchus وكراتيبوس Cratipus^(٣) وغيرها . وكان فلاسفتهم في الجملة لا يعتبرون الاستنباط الذي تؤدي إليه مقدمات وأسباب تبرر نتائجها تنبؤاً بالغيب ، فليس كاهناً من تنبأ استناداً إلى قوانين الطبيعة وأحداثها ، من طبيب أو ملاح أو سياسي أو نحوه^(٤) .

وكما اشتدت حملة الكثيرين من مفكري الإسلام على مدعى القدرة على التنبؤ من الدجالين والمرزقة ، فقد كان هذا هو الحال عند الرومان ، هاجمهم معتقو التنبؤ

(1) Ibid : i. 43.

(2) Ibid : i. 6, 18 & 33 Seq.

(3) Ibid : i, 3 مع تعليقات طبعة «جارتيد» على الفقرة الثالثة ، وقرن الفقرة الحسب

(4) Ibid : i, 50

السحيج ومنكروه على السواء^(١) . واشتد خطر هؤلاء الدجالين حتى اضطر مجلس الأعيان في عام ٢١٣ ق . م إلى مصادرة المصنفات التي تضمنت نبوءاتهم الرخيصة^(٢) وقد حصروا الإدراك الغيبي في الآلهة ، ورأوا أنها تمنحه من تشاء من السكبان والرائين والمرافين أيقاظا ، وأصحاب الرؤيا الصادقة نياما ، وقد هيمنت الآلهة حتى على أساليب التنبؤ الصناعي...^(٣)

ورد التنبؤ - ولا سيما الطبيعي منه - إلى الآلهة لا إلى النظر العقلي ونحوه ، أفضى إلى القول بقدرة بعض المجانين على كشف مجاهله ، وحرمان الحكاء من هذه الهبة^(٤) كما ذهب الرواقيون ، ولكن أتباع الأكاديمية الجديدة قد رفضوا هذا الرأي^(٥) . والثابت عند جمهرة المستشرقين الذين عرضوا للبحث في تاريخ هذه المعلوم ، أن هذه المعلوم قد عرفت في الشرق القديم عند الآشوريين والكلدانيين والمصريين ومن إليهم ، ثم امتزجت بما عرف عن اليونانيين والرومان من أفكار ، وانتقل التراث الهيليني الذي جمع بين العناصر الشرقية والأفكار اليونانية ، كما انتقلت (على وجه الخصوص) الأفلاطونية الجديدة والفيثاغورية المحدثه والغنوصية ونحوها مما يسائر الروح العربي ، إلى مفكرى الإسلام وأثرت في الكثيرين منهم^(٦) .

(1) Ibid. i, 58

(2) Tite-Live XXV, i. ح ٤ ص ١٢ وانظر « بوشيه لوكايرك » ح ٤ ص ١٢

(3) Ibid, i, 35-37, 51, 52 & 54. أما عن التنبؤ الطبيعي فانظر الفقرة الثامنة والثلاثين من الكتاب الأول في شيشرون

(4) Ibid, i, 38.

(5) Ibid, ii, 54. وقد عارض « شارل آبون » في تعليقاته على طبعة « جارنييه » الفرنسية ، رأى شيشرون بنظرية مفكرى المسيحية ، وهي قرينة الشبه من نظرية المسلمين .

(6) أبان عن هذا « بوشيه لوكايرك » Bouché - Leclercq و « شيشرون » Cicero والذين اشتركوا في مادة Divination في دائرة معارف الدين والأخلاق وغيرهم ممن فصلوا في بيان هذا الموضوع .

المشهوره بين القرآء ونراث الفرماء :

إن معرفة المسلمين بالقرآن أسبق من معرفتهم بفلسفة اليونان والرومان لا محالة، فإذا كان القرآن قد حدد آفاق العلم بالغيب على النحو الذي أسلفناه ، واستوعب آراء المسلمين في هذا الصدد ، فإن الشيء الذي لا يكاد يرتقى إليه الشك - عند من يؤمن بأن القرآن منزل وليس موضوعا - هو أن مرد آراء مفكرى الإسلام إلى القرآن لا إلى اليونان والرومان - بالغاً ما بلغ التشابه الدقيق بين وجهات النظر الإسلامى واليونانى، ومهما ثبت انتقال الهيلىنية إلى العالم الإسلامى إلا إذا قيل إن القرآن نفسه قد تأثر بتراث هؤلاء القدماء وإذا نحن أهملنا النظر إلى أسبقية علمهم بالقرآن ، لما كان التشابه وحده مبرراً للجزم بنقل اللاحق عن السابق ، لأن فى العقل البشرى وحدة كفيلة بالاهتداء إلى النتائج المتشابهة رغم اختلاف الزمان والمكان معا كما سنعرف فى نهاية هذا البحث .

والكن إذا كان من الإنصاف أن نرد للأسلام اتجاهات مفكرية فى فهم الغيب وتحديد آفاقه ، فإن من الإنصاف للتراث العربى أن نرد إليه الكثير من عناصر التفسير العقلى لهذا الإدراك عند المسلمين ، فإن الدين الإسلامى لم ينزل ليفسر مثل هذه الظواهر تفسيراً عقائياً منطقياً ، وما من شك فى أن مفكرى الإسلام قد أخذوا عن الهيلىنيين الكثير من وجوه التفكير النظرى ، لأن روحهم تساير الإسلام إجمالاً وتنساق مع طبيعة أهله ، لا سيما وأن الكثير من عناصره مرجعه إلى الشرق القديم ، وسنعرض لهذا فيما بعد .

ملاحظات على بعض سالف :

حسبنا الآن أن نسجل بضع ملاحظات خاطفة :

١ — استنثار الله بالغيب ومنحه لمن يشاء من عباده ، قد أدى إلى استبعاد الصنعي من أساليبه ، وأفضى هذا إلى احتقار النظر العقلي والمهج التجريبي في الوصول إليه ، وانتهى هذا إلى سلب الإدراك الغيبي عن الفلاسفة والعلماء وإضافته للمجانين والمعتموهين والنيام ومن إليهم من فاقدى العقل ، وارتفعت مرتبة هؤلاء حتى اقتربت من مرتبة النبوة ...!!

٢ — تفسير الفلاسفة الوحي باتصال العقل المستفاد بالعقل الفعال ، يقوم على جانب شعري خيالي ليس من الميسور على العقل العلمي أن يسلم به .

٣ — تفسير الصوفية للإلهام يرده إلى الصناعة والاكتساب ، فإن تجريد النفس من علائق الحس يجيء بالذكر والجوع والسهر ونحوه من طرق كسبية صناعية . وربما قيل إن التجرد الذي قصدوا إليه قد توافر للكثيرين من أمثال غاندي ، فهل وقع لهم شيء من مدارك الغيب ..؟ على أن من الإنصاف أن نقول إنهم لم يدعوا أن التجرد يؤدي إلى العلم بالغيب في كل حالة .

٤ — ابن خلدون مفكر عبقرى باعتراف المستشرقين ، ولكنه يبدو في هذا الفصل مجرد ناقل يحيط فاقدى العقل بهالة من التقديس ، ويناقض نفسه فيقرر حيناً بأن الغيب لا يجيء صناعة ولا اكتساباً ، ثم يقرر حيناً آخر بأنه يقع لمن يموت بالمجاهدة موتاً صناعياً فيقتل بذلك كافة قواه البدنية بالذكر والجوع ... إلى آخره .

٥ — ربما بدامن عرض اتجاهات الفلاسفة وبعض الصوفية في تعليل الإدراك الغيبي ، أنها لا تتفق مع ظاهر الشرع الذي قرر بأن الله يطلع على غيبه من شاء من عباده ، وهذا

— فيما يابح — مما جعل رجال الدين والسنين من الصوفية على رفض الاتصال الفاسفي والاتحاد الصوفي معا .

٦ — إن بعض المفكرين قد أنكروا الإدراك النبي في مختلف صورته ، ورد ما يبدو من آثاره إلى النفس ، أي أنه ينبع من باطن النفس ولا يقد إليها من خارج ، وربما أيدته في ذلك بعض الدراسات السيكولوجية الحديثة والقديمة مما^(١) . وسنعود إلى هذا بعد قليل^(٢) .

٧ — إن التنبؤ في عرف مفكري الإسلام غير التنبؤ الذي يسلم به العلم — وهو استنباط نتيجة من مقدمات تبرر استنباطها .

وبعد ، فهذه نظرة مجملة إلى عالم الغيب عند مفكري الإسلام ، وهو على ما رأينا قسما : طبيعي وصنعي ، فلنتقف بابا خاصا لتفصيل الحديث عن كل منهما :

(١) قارن رأي شيمرون أحد زعماء الأكاديمية الجديدة في الفقرة ٦٧ من الكتاب الثاني في سفره السالف الذكر .

(٢) فصل « إدراك الغيب عند الأنبياء » .